المأساة في مقصورة ابن دريد

بقلم صدقي إسماعيل

فان امت فقد تناهت لذتي وكل شيء بلغ الحد انتهى

« ابن دريد »

— ١ —

ولد ابن دريد في البصرة سنة (٢٢٣) هجرية وناهز المائة عام . وكان ينتمي الى اسرة عربية عريقة تنحدر من الازد ويمتد نسبها الى يعرب ابن قحطان . ولعل امتياز النسب قد اتاح لها يسرا في الحياة توارثته من عهود بعيدة ، فلم يعرف ابن دريد ذل الفاقة ، وكان على جانب من النعمه ، ولا يعرف عنه خلال هذه الحقبة الطويلة من الزمن الا انه نزح عن بلده في وقت مبكر ونشأ في عمان وكان يحب الموسيقى والازهار ويدمن شرب الخمر . وانه عرف بين الناس لغويا مبدعا وشاعرا بارع الصنعة وعالما في الادب جمع في صدره دواوين العرب جميعا ، وكان من ائمة النحو في عصره ياتيه المثقفون من كل بلد ويقصد اليه المريدون ، وقضى اعوامه الاخيرة مفلوجا يعاني الام المرض واحزان العزلة ومات ببغداد .

واشتهر ابن دريد في تاريخ الادب العربي بقصيدة طويلة وضع فيها حلاصة تجربته في الحياة وجماع ثقافته اللغوية ، هي المقصورة المعروفة باسمه ، والف عشرين كتابا اخر في اغراض النحو والشعر وعلوم اللغة .

ومقصورة ابن دريد هي عمل فني كامل . وعلى الرغم من ان الصنعة فيها تبدو صارمة متكلفة احيانا ، وكان الصيغة فيها استغرقت كل جهد الشاعر ، فان وراء الكلمات المصنوعة في براعة واصطفاء ، شخصية انسانية واضحة تحمل تجربة غنية متعددة الاغراض متماسكة الجوانب حتى لتبدو جوابا بليغا على الكثير من قضايا الانسان .

وليس في القصيدة ما ينم عن عبقرية في ابتكار المعاني وابداع الصور ، فهي مجموعة من الخواطر المألوفة والصور التقليدية والتشابيه الدارجة في الشعر العربي . ولكنها على الرغم من ذلك تعتبر اثرا فنيا مبدعا بما تنطوي عليه من متانة السبك وجمال العبارة .. ولعل ما يميزها بوجه خاص هو حرصها على التقاليد من حيث المعاني والصور، والتماسها الابداع الفني في صنع الصيغة الجديدة . وتلك ظاهرة ، تلفت النظر ، في طبيعة الشعر العربي القديم . فقد كان الشعراء يتوجهون الى الابتكار في العبارة اكثر مما يلتمسونه في المضمون . ولم يجدوا غضاضة في التقليد من هذه الناحية . فالكلمة في تجربتهم الشعرية هي صنعة الشاعر ورسالته الحقة ، اما المضمون فانه ثمرة لتجربة الجميع .. ولا يضير الشاعر ان يكون اللسان المفصح عن هذه التجربة ، ان يردد ما يقوله الاخرون ، وما يفيض به الوجدان الجمعي .. وهو يلجأ الى روح الجماعة حتى في التعبير عن مشاعره الذاتية ، كان هناك حقيقة اعمق جذورا في تربة الحياة واغنى بالتجربة ، هي الشعب الذي ينتمي اليه ، ومن ثم فهو من ناحية المعنى الذي يمثله ، رمز لا اكثر . اما العبقرية الفنية التي ترجع اليه ، فانها تتمثل في ابداع العبارة الجديدة ، الصياغة التي يمكن ان تضاف الى لغة الشعب كجزء من تراثه العريق .

كان ابن دريد صورة بليغة لهذا النموذج من الموهبة الشعرية .

— ٢ —

حين ولد ابن دريد كان تاريخ العرب السياسي في بداية الانحدار . وكان الخليفة المعتصم اخر يد قوية تمسك بزمام الحكم العربي،وعلى الرغم من ذلك فقد قال له احد مهرجي القصر ذات يوم : « انما لك من الخلافة الاسم » . وكان المعتصم يبني مدينة سامرا لجنوده الاتراك الذين استعملهم لحماية الدولة بعد ان اخمدوا له ثورتين لعب فيهما الصراع الطبقي دورا هما ثورة الزط وثورة القرامطة . وكان العرب يبتعدون عن المشاركة في الحياة السياسية ولم يعودوا موضع ثقة السلطة ، غير انهم احتفظوا بالكثير من الامتيازات الاجتماعية ، والمصالح الاقتصادية .

ويكاد المعتصم ان يكون اخر ملك عربي ينتهي نهاية عادية ، فقد ولي الخلافة بعده ، خلال حياة ابن دريد ، عشرة خلفاء خلعوا او قتلوا ومنهم من مات من السكر (١) ومنهم من قتله تأنيب الضمير (٢)

واصبحت الدولة لعبة خطرة بيد جيش دخيل يحكم عن طريق كبار الضباط الذين لا يحملون من قضية الدولة الا السيطرة والدسيسة وتحقيق المطامع الشخصية . وكانت ادارة الحكم في الظاهر بايدي الوزراء ولكنهم كانوا اداة للقوة العسكرية . وكانوا يدفعون ثمنا غاليا لايام الحكم القصيرة ، وكثيرون منهم كان مصيرهم القتل والتعذيب والتشريد ..

وكان العصر خضما جارفا من الاحداث ، تتعاقب فيه الثورات العديدة والمؤامرات والكوارث ، في سير مزدحم من المآسي ، شعاره العنف والغدر والدسيسة . وكان بذلك صورة للاضطراب الذي تفيض به حياة الناس ايضا . فقد كان التناحر والصراع شعار الجماعات البشرية في ارجاء الدولة ، بين سكان البادية وسكان المدن ، بين سواد الفلاحين والاقطاعيين بين مفاسد السلطة والتقاليد الخلقية ، وكان التعصب العنصري والتنازع القبلي على اشدهما في كل مكان .

— ٣ —

ورث ابن دريد عن نشأته فردية جامحة لم تتح له ان ينظر الى قضية

(١) المعتمد . (٢) المنتصر .

عصره الا من خلال مشاعره الذاتية وامانيه الخاصة . ويبدو انه اختار العزلة عن احداث العصر ، ولم يحمل عمله الثقافي ما يدل على اكتراثه بما يجري حوله من احداث .وهو موقف يعبر عن اليأس ويمكن ان يكون مظهرا للخيبة والانهزام . وقد كان للجماهير الشعبية مثل هذا الموقف ، ولكنها كانت تحمل فيه الكثير من النقمة تعبر عنها في الاستجابة لكل دعوة ثورية تعارض الدولة وتقوم على العنف . وعلى الرغم من ان الخيبة كانت تحصد جميع الامال ، فقد بقي التذمر شعارا للوجدان الشعبي الذي كانت السلطة في نظره تحمل طابع القدسية والمنعة فاصبحت مهزلة عجيبة تنضح بالمآسي البغيضة .

وقد انطوت تجربة ابن دريد على ازمة هذا الوجدان في جذورها العميقة ، وعلى الرغم من ان انتاجه الثقافي لا يشير الى اقل التزام بقضية معاصرة ، كما هي الحال مثلا بالنسبة للمتنبي والمعري ، فانه استطاع في مقصورته ان يصور المأساة التي يحياها عصره ، وراء جميع الاحداث العابرة . فثمة اشياء راسخة كانت قد استقرت في بنية الحياة الانسانية ، اذ ذاك ، اصبح الجميع يحملون ملامحها ويعبرون عنها في الافكار والاعمال ... اشياء ثابتة واضحة المعالم ، تكشف عما آلت اليه قضية الانسان في ذلك العصر ... وكان ابن دريد مفصحا عنها ، في حقيقتها المتمكنة الصلبة وراء ضوضاء الحوادث وضباب المظاهر .

وتخيم على ابن دريد في هذه التجربة روح حزينة خائبة تتحسس المأساة في كل جانب .

— ٤ —

كل شيء زائف ملوث . تلك هي الحقيقة الاولى في حس المأساة : ان يلتفت الانسان حوله فلا يرى الا المظاهر الباطلة والاكاذيب . لكي ينشأ هذا الشعور يجب ان يكون المرء على جانب من الوعي يتيح له الانفصال عن التيار الدنس الذي يجرف مصائر الجميع ، ان يخلع العصر الذي يعيش فيه معترفا بالهزيمة . فحين يشارك الانسان في احداث عصره ، ويحتل مكانه في موكب الحياة العامة ، يفقد كل مبرر للعزلة ، ويصعب عليه ان يتبين الخيوط الحقيقية للمأساة . والعزلة شقاء ، مهما تكن جميلة . انها اعتراف بالفشل . فالمألوف ان تتحكم الارادة الانسانية بالحياة ، ان تكون للفرد قضية كبرى يلتقي بها مع الاخرين ، ويمضون معا في صنع التاريخ ..

ولكن قوة عاتية تتحكم بمصائر الجميع ، لا يستطيع الانسان امامها اي شيء . ظروف قاسية تفسد كل طمأنينة وتدفن كل امل . احيانا تحملها مخاوف الناس وقلقهم على مصيرهم ، وتارة تحملها مخازي السلطة، ومساوىء المجتمع ، ولكنها في جميع الاحيان تبدو في فساد النفوس . وذلك الامر الذي يدفع الى اليأس . فالناس لم يعودوا قادرين على شيء نبيل . وقد ماتت نزعة المجد (١) وانطوت صفحتها الى الابد .

ولكن الناس يعيشون — مهما تكن الظروف — ويمضون في هذا الركب المزدحم بالمفاسد ، لانهم مرغمون على الاستمرار . تفرض عليهم نزعة الحياة في عبودية قاهرة ، ويضطربون اذا تهددهم خطر ، حتى اذا انقضى مضوا بعيون مغمضة وعبث كاذب ، وهم اجبن من ان يتطلعوا الى الحقيقة المرة ، الى ما ينتظرهم من مصير (٢) .

وهم غير ملومين . فقد قدر عليهم ما هم فيه لانهم لا يملكون العزم على التمرد . انهم ابناء عصر مدان ، والعصر يصنع ابناءه على شاكلته (٣) ومن ثم فالفاسد قدر داخلي قبل ان يكون شيئا دخيلا . لقد فسدت الطبيعة البشرية منذ ان فقدت صبوتها الى الفعال العظيمة ، بهذه الصبوة وحدها يمكن ان يكون للحياة معنى انساني جميل ، وبها يتحرر الانسان من قيود الحياة المألوفة العادية ، ويكون شيئا جديرا .

من هذه القيود ان هناك منطقا صارما يوجه سلوك الجميع ، يبدو الانسان خلاله كائنا عاديا يسعى في سبيل حاجاته في طمع وشراسة ، لا يربطه بالاخرين الا الصراع من اجل العيش . ولكي يظفر بما يشتهي يجب ان يكون ذا سطوة ، قادرا على الظلم ، فالمحبة مظهر للضعف والانكسار . اذا كنت لين الجانب فقد اهانك الناس (٤) واساءوا اليك، فالعداوة متاصلة في نفوس الجميع .

ذلك ان طلب الانتفاع هو المحور الاصيل في حياة الناس ، وحين يكون ذلك ، فقد سيطر عليهم النفاق ، ان ينحنوا امام المال حيثما وجد،

---

(١) « ان نجوم المجد أمست افلا »

(٢) فال للامر الذي يروعنا ونرتعي في غفلة اذا انقضى

(٣) وكلّ قرن ناجم في زمن فهو شبيه زمن فيه بدا .

(٤) من ظلم الناس تحاموا ظلمه وعز عنهم جانباه واحتمى

وهم لمن لان لهم جانبـــــه اظلم من حيات انباث السفا

دار المعارف بلبنان

بناية العسيلي ساحة رياض الصلح ص. ب. ٢٦٧٦

تقدم قصة فتاة اخطأت في حياتها الاولى، فلم تعد تدري كيف تصلح خطأها. الا بعد سنوات كثيرة وصعاب آت شتى.

الفتاة المتحررة

قصة الخطيئة الاولى وأثرها في حياة فتاة وحياة اهلها.

تأليف بهجي جودين

الثمن ١٥٠ ق.ل. او ما يعادلها

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة

ويحتقروا الانسان حين تدركه الفاقة (١) انهم يلتمسون في المظاهر الكاذبة رداء يحجبون به هزال النفوس ، فالانسان بمظهره لا بحقيقته ، والكذب ذريعة الحياة .(٢)

واذا لم يتح للانسان ان يساوم البيئة التي يعيش فيها ، فانه يطرح جانبا ويهان . وما من انسان ينال ما هو جدير به لان هناك قدرا عاتيا يملك مصائر الجميع هو الحظ ، (٣) والحظ صدفة عمياء . فقد يسود الجاهل ويضطهد العالم .. وقد تفتح الحياة ذراعيها للاشرار حين تثقل النطيين بالهموم والاحزان ..

من اجل هذا ، على الانسان ان يدرك حكمة الحياة في عصره ، انه مرغم على الانسياق في خضم الواقع وعليه ان يحسن هذا الانسياق . ان يكون « ظاهرة واقعية » بكل معنى الكلمة .

— ٥ —

واول ما تقتضيه هذه الحكمة ان نعتبر باحداث الدهر ، وناخذ الموعظة من الايام فهي خير مؤدب للانسان (٤) . انها تعلمنا القناعة والاستسلام (٥) فليس للمرء ان يطلب مالا يطيق (٦) . وعلى النفس ان ترضى بما هي فيه مهما يكن بغيضا (٧) . ومن نزعت نفسه الى ابعد مما له ، عجز عن نيل ما تحت يديه . (٨) وللانسان حد يجب ان يقف عنده(٩)وليس ما هو ادعى للمقت كالغرور والطموح والعجب بالنفس(١٠). انما العاقل من فكر في الامور طويلا قبل ان يعمل ، واحترس من كل مجازفة والا كان نصيبه الندم . (١١) فالحكمة ان تحجم عن كل نزوة جامحة ، وما ينجو الا الذي يلجم هواه بالتعقل (١٢) فالجموح ضلال لان الطبيعة البشرية مشوبة ابدا بالخطأ والنقيصة(١٣). والحكيم من اخذ الناس على علاتهم ، وحسبه ان يجد في الاخر خلة واحدة محمودة لكي يمحضه الود ، مهما يكن رديء الطباع . (١٤) وما من سيف الا وينبو وما من جواد الا ويكبو .. (١٥)

واذا كان اللسان على هذا النحو من الفساد فان من الحزم ان يذل نفسه ويرغمها على احتمال الاذى (١) ، والتذرع بالخنوع والصبر ، (٢) في انتظار ما يمكن ان تمنحه الاقدار من منة الخلاص .. (٣)

الانتظار الخانع .. تلك خاتمة الوصايا الابدية التي يفرضها العصر على ابنائه الخائبين .

— ٦ —

ذلك هو قدر الانسان في تجربة ابن دريد ، و « الانسان في التجربة » هو الكائن الواقعي المشدود الى بيئته وعصره بجميع الاغلال . انه ليبدد صورة كئيبة للعبودية والاستسلام ، كانه « شيء » تافه يعبث به القدر وتثقله لعنة الجمود بالهموم الثقال .

وقد كان ابن دريد من ابناء عصره ، ولكن المرارة التي تفيض بها مشاعره امام الواقع ، تحمل روح انسان متمرد يشفق ان يكون على النحو من الجمود والاستسلام ، غير انه اشفاق اليائس لا يملك الا الرثاء والالم . فلكي يكون ثمة امل يجب ان تقف ارادة انسانية جريئة في وجه الاقدار . مشيئة حرة تتيح للانسان ان يصنع مصيره وفق ما يحب ويريد. وهو يريد الحياة السليمة ويحب السعادة الابدية . ولكن لا سبيل . فالعصر كله مدان . ومن الحكمة ان نلتمس منطقا معقولا لما نفعله الايام . وليس لنا الا هذه الحكمة ما دامت الطبيعة البشرية في حضيض من الانهيار .

علينا ان نبرر الاشياء التي نحياها ما دمنا لا نستطيع تبديلها . وفي هذا التبرير نتقذ شيئا من حريتنا ، نختار على الاقل ، في شيء من الوعي ، الطريق التي ارادها لنا القدر ، وبتعبير اخر نتبنى الواقع لئلا نقسر عليه (٤) .

ولكن هذا لا يمنعنا من العودة الى نفوسنا ، وعندئذ تبدو لنا هذه الهوة السحيقة بين « الانسان الواقعي » ، «الانسان في زمنه » ، وبين الانسان كصبوة الى الحياة الجميلة ، تختار مصيرها في حرية . واذا لم يمكن ثمة سبيل لان تحقق هذه الصبوة ما تنزع اليه في واقع يسحق الانسان سحقا ، فانها تعيش كحقيقة حية في نفوس القلائل . افراد (٥) يملكون القدرة على التمرد والانفصال عن القطيع . فلا بد من ان يبقى للحياة الانسانية من يمثل ما يحلم به الناس من صور الانعتاق . وقد لا يستطيع هؤلاء الافراد شيئا ، ولكنهم يلبثون نماذج يحاول ان يقتدي بها الاخرون ..

وقد تكون هذه النماذج مجرد وهم يطوف باخيلة الخائبين ، ولكنها توميء ابدا الى شيء ثمين في الحقيقة الانسانية هي ان الانسان خلق لامر اخر ، لمصير كبر مما قدرته عليه الايام ..

وتبدو هذه الحقيقة عند ابن دريد في نموذج الفارس . ينطلق في الصحراء وحيدا ، وراء الخطر ولا رفيق له الا السيف والجواد (٦) والعزيمة المصممة التي خلقت للكفاح المستمر (٧)، ووجدت في اقتحام الموت

---

(١) عبيد ذي المال وان لم يطمعوا من غمره في جرعة تشفي الصدى..
« وهل لمن املق اعداء .. »

(٢) والناس كالنبت فمنهم رائق غض نضير عوده مر الجنى
ومنه ما تقتحم العين فان ذقت جناه انساغ عذبا في اللهى

(٣) لا يرفع اللب بلا جد ولا يحطك الجهل اذا الجد علا
« لا تسألني واسأل المقدار .. »

(٤) من لم يعظه الدهر لم ينفعه ما راح به الواعظ يوما او غدا
من لم تفده عبرا ايامه كان العمى اولى به من الهدى

(٥) من ملك الحرص القياد لم يزل يكرع في ماء من الذل .. »

(٦) من عارض الاطماع باليأس رنت اليه عين العز

(٧) من عطف النفس على مكروهها كان الغنى قرينه حيث انتوى

(٨) من طال فوق منتهى بسطته اعجزه نيل الدنا ..

(٩) من لم يقف عند انتهاء قدره تقاصرت عنه فسيحات الخطا

(١٠) من ناط بالعجب عرى اخلاقه نيطت عرى المقت الى تلك العرى

(١١) من ضيع الحزم جنى لنفسه ندامة .. »

(١٢) وآفة العقل الهوى فمن علا على هواه عقله فقد نجا

(١٣) من لك بالمهذب الندب الذي لايجد العيب اليه مختطى

(١٤) كم من أخ مسخوطة اخلاقه اصفيته الود لخلق مرتضى

(١٥) اذا بلوت السيف محمودا فلا تلمعه ان تراه يوما قد نبا
والطرف يجتاز المدى وربما عن لمعداه عثار فكبا

---

(١) وعطف النفس على سبل الاسا . »

(٢) عول على الصبر الجميل انه امنع ما لاذ به اولو الحجا

(٣) والدهر يكبو بالفتى وتارة ينهضه ..

(٤) من كان ذا سخط على صرف القضا ؟

(٥) وواحد كالالف ان امر عنى

(٦) هما عتادي الكافيان فقد من اعددته، فلينأ عني من نأى

(٧) لكن لي عزما اذا إمتطيته لمبهم الامر ..

سبيلها الى العظمة (١) انها ترمز الى العنفوان في كل شيء ، الجموح الذي لا يعرف الاحجام والتحفظ .. احيانا تحمله الكبرياء يقف بها الانسان الحر في ذروة المجد (٢) ، واحيانا تمثله المكرمة والسخاء (٣) .

ولكن هذا النموذج هو خيال واسطورة اكثر منه حقيقة حية تعيش في الواقع . انه اشارة صادقة لحنين الانسان الى الانفراد والعزلة ، الحنين الى الحياة الجميلة القوية التي اندثرت معالمها من مجتمعات النـــاس وأصبحت الصحراء وحدها ملاذها الاخير ..

وليست الصحراء رمزا للعزلة الحزينة فحسب ، بل هي صورة الماضي حين كان كل شيء صادقا بريئا . والذين يمثلون هذا النموذج في شيء او سواه ، انما هم بقية من عهد ذهبي (٤) ، من غابر بعيد كانت الحيـاة فيه اجدر بان تبارك وتحب...

وخيال الفارس المنفرد ، على الرغم من عنفوانه ، ينطوي على نزعـــة عاطفية يائسة . موقف فردي قاس تمليه روح سلبية ينتهبها التشـاؤم : ان يلوذ الانسان بالصحراء كارها حياة الناس مؤثرا عليهم مخاطر الليـل وصحبة الذئاب (٥) .

— ٧ —

ولكنه الحنين الى الماضي . وهذا الحنين هو الينبوع الذي يستقـي منه ابن دريد ايقاع عاطفته. شعور بالنأي والذهاب (٦)والاندثار في غور الزمن . ومن المألوف ان يكون هذا الشعور محورا في تجربة رجل عـاش قرنا كاملا او كاد : وكان حس الماضي في وجوده ، شعورا جارفا بالزمـــن هذا التغير الازلي الذي سلط على كل شيء . وحين يكون الماضي صورة للحياة السليمة فان كل تغير يعني الفساد ، فلا ريب ان الحياة فـــي البدء تحمل البراءة والعنفوان ، ومثلما ذهب الزمن بالعصور الجميـلة يذهب ايضا بالطفولة والشباب . وكل ما تلمسه يد الزمن يغيض بعـد التفتح وينحدر (٧) كان الزمن سقوط وانهيار (٨) .

وما يؤسينا من الزمن انه ينتهب الجسد اولا ، ونحن لا نستطيع شيئـا دون فتوة الجسد . فمنذ ان يبدأ الجسد بالذبول تضمحل فينـا القدرة على الاستمرار في الرغبات الحارة ، وتخمد كل صبوة حقة ، وتـــذوي مسرات الحياة (٩) .

ونحن نعيش تجربة الزمن في كل يوم ، ولكننا لا نكتشف المأساة فيها الا عندما يبدأ الانحدار . فثمة احساس بالعبودية يغزونا آنئذ ، ويسكب في جوانحنا كآبة حزينة تصبح مع الايام نسيج وجودنا . والعبودية اننا لا نستيطع ردا لهذا السقوط المروع ، فان ما يستبد بالكائنات فيبليهـــا يستبد بنا ايضا ويورثنا الانهيار . والشيخوخة رمز لهذه الوراثة البائسة.

غير اننا نرفض الهرم ، لا لاننا نحب الحياة الحارة فحسب ، بل لان تقدم السن يحمل الينا نضجا في فهم الحياة وتذوق مسراتها . ولكننا نرى الابواب موصدة ، تقرعها يدنا المعروقة دون طائل فلا نملك الا الالم الصارخ (١) .

ونحن — مع ذلك — نحتمل الالم في صبر وعناد ، لاننا لا نحب اليأس فثمة في النفس بقية من عنفوان الماضي (٢) تعيد الى حياتنا املا بالعودة ... ولكنه امل مضطرب لا يحمل من اليقين الا ما تحمله ايماضة البـرق للارض العطشى ، مجرد وعد لا اكثر (٣) .

امام هذا الامل تقف الحقيقة الصعبة . ان عذاب الجسد هو اشارة الى النهاية (٤) . فالموت هو المصير المرتقب . ومهما يكن في الموت مـن حكمة ، فانه بغيض الينا . اننا نرفض الموت مهما يكن معقولا . واذا كان الزمن يلوح لنا ابدا بهذه النهاية الفاجعة ، فاننا نعرف انها حكمة الزمن . ففي طبيعته انه يحمل الفساد والبلى . ولكنه في الوقت نفسه يحمل الينا الحياة ، وهي حياتنا نحن نستطيع ان نصنع منها ما نريد . ومن العبث ان نطمح الى تبديل الزمن كقدر عات نهايته القبر ، ولكننـــا قادرون على الزمن الذي نحياه : ان نغنيه بالتجارب القوية والمسرات العميقة ، ان نخلع عليه المعاني الانسانية التي نزخر بها صبوتنا الـــى الحياة ، ونوشيه بجميع الالوان الجميلة ..

ومن اجل هذا نحرص على الحياة حتى النهاية ، ونحاول ان نقهر الموت بشهوة الحياة المستمرة في كياننا ولو خذلنا الجسد (٥) .

الرغبة الحارة . ذلك هو الينبوع « الانساني » الرائع الذي يجعل الزمن كله نهارا صاخبا بالنشوة مترعا بالملذات ، لا تمتد اليه كآبـــة الغروب . والرغبة الحارة هي العنفوان . وهو دائما في البداية ، حين يكون كل شيء فتيا جامحا بريئا ، غير مكترث بتعاقب الليل والنهار ، بعيدا عن احزان القدر ..

وفي سبيل هذا العنفوان نلتفت الى ذكريات الماضي في شغف وحنين، ويغبطنا ان الحياة كانت لنا ذات يوم وان الجدول ما يزال على ترقرقه العذب ..

— ٨ —

اننا نقهر الموت بمقدار ما نملأ حياتنا جيدا ، وما نصنع من الذكريات الجميلة ، وسبيلنا في ذلك هو النشوة في شتى آفاقها الرحيبة ، نشوة الجمال والحب (٦) ونشوة الخمر (٧) والصداقة (٨)والغبطة التـي يهبنـا

---

(١) فان سمعت برحى منصوبة الحرب فاعلم انني قطب الرحـى
وان رأيت نار حرب تلتظـــي فاعلم باني مسعر ذاك اللظـــى
خير النفوس السائلات جهرة على ظبات الرهفات والقنا ..

(٢) هم الشناخيب المنيفات الـذرى

(٣) هـم البحور زاخر آذيهـــا

(٤) الا بقايا من اناس بهم الى سبيل المكرمات يقتدى

(٥) وردته والذئب يعوي حولـه

(٦) وغاض ماء شرقي ، وآض روض اللهو .. وضرم النأي المشت ..

(٧) ان الجديدين اذا مـا استوليـا على جديد ادنياه للبـلى

(٨) . . . . والزمان مولع بشت ملموم وتنكيت قوي

(٩) ارمق العيش على بـرض فـان رمت ارتشافا رمت صعب المنتشى

---

(١) شجيت لا بل اجرضتني غصـة عنودها اقتل الي من الشجى
ان يحم عن عيني البكا تجلدي فالقلب موقوف على سبل البكا

(٢) فكـل ما لاقيتـــه مغتفـــر في جنب ما اسأره شحط النوى

(٣) شيـم سحـاب خلب بارقـــه وموقف بين ارتجـاء ومنـ ى

(٤) اذا ذوى الغصن الرطيب فاعلمن ان قصاراه نفـاد ومنبى

(٥) ازاجـع لي الدهر حولا كاملا الى الـذي عـود ؟...

(٦) ولاعبتني غادة وهنانـــة تضني وفي ترشافها برء الضنـى
كأنما الصهباء مقطوب بهـــا ماء جنى ورد اذا اليل عسا

(٧) يارب ليل جمعت قطريه فـــي بنت ثمانين عروسا تجتلى

(٨) . . . . « ما زاع قلبي عنهم لا هنا »

اياها سحر الاشياء في العالم (١) .

وعندما نحسن الحياة الحارة يكون الموت فاتحة طبيعية لا يأسف المرء امامه على شيء ، لانه خاتمة المطاف (٢) .

ولكي نستطيع مثل هذه الاستجابة الغنية لنداء الحياة ، نتوسل بالحاسة الانسانية ، ونؤمن بها . وليست الحاسة سبيلا للاستمتاع بالحياة فحسب ، بل هي ايضا فعالية فذة تنسج لنا الصور المبدعة ، وتصنع ايقاعا عذبا لكل ما في الوجود من اشياء . انها تترجم الالوان والاشكال والاصوات الى عالم رائع من الكلمات والاخيلة والالحان ، هو الشعر . ومن دون الشعر يلبث العالم باهتا جافا لا حياة فيه .

والشعر هو الكلمة . وعلى الرغم من ان التجربة هي التي تنسج خيوط الالهام الشعري ، فان العبارة هي كل ما في الشعر . فالتجربة تضمحل وتزول ، اما العبارة فانها باقية ابدا . شأنها في ذلك شأن كل حقيقة تفرض نفسها على الزمن ، وتقهر الفناء بالاستمرار عبر الاجيال ... ذلك انها ليست للشاعر وحده ، بل لجميع الاخرين : انها جانب من التراث الانساني الذي تحميه الجماعة كما تحمي اقدس الاعراف ..

ولكي تبلغ العبارة هذه المكانة من الصيانة والرسوخ ، يجب ان تحمل شيئا من خلود اللغة التي تصدر عنها ، ان تكون صيغة جديدة متينة السبك جديرة بالبقاء الى جانب جميع الصيغ اللفظية التي يفصح بها الناس عما يريدون ..

والكلمة ـ في حياة العرب بصورة خاصة ـ ليست وسيلة للاداء فحسب ، بل هي ثمرة يانعة للابداع الشعري . ان مصدرها هو الخيال المحسوس ومن ثم فهي تجربة فنية عاشها الشعب خلال اجيال ، فهي صورة اكثر منها رمزا .

وقد كرس ابن دريد حياته لدراسة الكلمة ، ليس كنحوي فحسب عالم في اصول اللغة ، بل كشاعر وجد في حياة الكلمات والصيغ الجديدة التي يمكن ان تصنع (٣) منها ، استمرارا للتجربة الفنية في حياة الشعب. ولعله ان يكون قد تلمس في ذلك سبيلا لما هو ابدي في وجوده الزائل. والصيغة المبدعة التي يمكن ان تضاف الى تراث الامة ، تحمل دائما ما تحمله الكلمات الحية من طابع الابدية . ان قضية الانسان في تجربة ابن دريد ان يقهر الزمن على نحو او آخر ..

ـ ٩ ـ

احيانا يرى الانسان نفسه في موقف حاسم . يطلب الحياة في شغف واصرار ، ويصبو في الوقت نفسه الى التحرر من ربقة الزمن . ولكن تجربة واحدة تضعه جانبا ، وترغمه على الانعطاف بكل حياته في طريق جديدة . ذلك حين يقف فجأة امام المأساة وجها لوجه ، في حادثة غير منتظرة توقظه من غفوة الاستسلام للقدر ، وتضع كل جدارته بالحرية موضع التساؤل : هل يستطيع ان يبدل شيئا ؟ ان يجعل بقية حياته ذات معنى انساني بليغ يتحدى حكمة الاقدار ؟ اذا أهين مثلا او هدده الموت قبل الاوان او فقد شخصا عزيزا او تأججت في صدره شرارة حب عظيم ، او ايمان جارف بحقيقة كبرى .. وقد يصحو في هذا الموقف على الواقع الحزين كما يصحو المغرور على حقيقة نفسه ، كان يظن انه كل شيء فاذا هو ذرة من الرمل تتقاذفها عواصف الرياح ..

ولكن هذه اليقظة لاتعني شيئا ، فقد تكون بداية استغراق جديد في غفلة الحياة ، فرارا من تحدي الزمن ، وخوفا من النهاية . وفي بعض الاحيان تكون هذه اليقظة بداية حياة جديدة ، عندما تنتفض ثمة ارادة صارخة تبعث في كيان الانسان نزعة المقاومة وتفرض عليه قضيتها وقدرها وتشعره بان حكمة الزمن هي مجرد عبث عابر ، وان الحقيقة الراسخة هي مايصنعه الانسان من نفسه ، ومن ثم يكون التمرد رمزا للانعتاق والتحرر ..

ولكنه تمرد يائس مداه هذا الجدار الاصم الذي يقف اخيرا في وجه كل ارادة انسانية : الموت .

فالبداية اذن هي في تحدي الموت الذي يريده الزمن . ولكي يستطيع الانسان ان يختار قضيتين في الحياة ويعلن في جرأة عن معناها الانساني يجب ان يختار موته : انيصنعه على النحو الذي يريد . ان كل مصير يختاره الانسان الحر يحمل تصميما معينا على موت مبكر . انه يرفض الاستسلام والشكوى (١) لان المأساة لم تعد في الرضوخ لقدر دخيل

ـ التتمة على الصفحة ٧٨ ـ

(١) تحتل اوصاف الطبيعة القسم الاكبر من ابيات المقصورة .

(٢) فان أمت فقد تناهت لذتي وكل شيء بلغ الحد انتهى

(٣) وممن الف الكتب في زماننا فرمي بافتعال العربية وتوليد الالفاظ وادخال ماليس في كلام العرب في كلامها ابو بكر بن دريد صاحب الجمهرة. الازهري ـ مقدمة كتاب التهذيب في اللغة .

(١) لاتحسبن يادهر اني ضارع ..

دار المعارف بلبنان

بناية السبلي ساحة رياض الصلح ص.ب. ٢٦٧٦

تقدم ثماني قصص صغيرة نالت اعجاب العالم باسره ، لان كلا منها تجري في قطر او آخر من آسيا واوربا ، واحرزت نجاحا منقطع النظير.

زوجة الكولونيل

وهي من القصص التي توزع بالملايين نسخا في الادب القصصي

وقصص اخرى

تأليف شومرست موم

الثمن ١٥٠ ق.ل. او مايعادلها

تطلب من جميع المكتبات الشهيرة

المأساة في مقصورة ابن دريد

تتمة المنشور على الصفحة ٢٣

على الصبوة الانسانية الكامنة في اعماقه ، بل اصبحت هذا القدر الداخلي الذي ينسج مصير المرء في ايمان وحب ، وهو يعرف ان الامتحان القاسي هو انتزاع الموت في حرية وتصميم . وليس الموت هو اليقين في هذه التجربة ، بل اختيار الموت . وهذا الاختيار هو اعمق صور المأساة ، ولكنه صيحة تمرد جريئة في وجه القدر ، فيها عزاء لجميع الاخرين عما يعانون من عبودية الزمن .

وان في تجارب الغابرين لامثلة كثيرة(١) :

— ١٠ —

فامرؤ القيس عرف هذه التجربة عندما قتل ابوه ووقف امام ملكه السليب وكرامته المهانة . وكان قبل ذلك مستغرقا في طلب الحياة تحفزه الرغبة الى اقتناص اللذات والاستمتاع بالوجود . وكان شاعرا مبدعا قادرا على ملء وجوده بالجمال ، ولكنه انعطف امام الكارثة ، فاصبح الثار — ومن ورائه الملك — كل قضيته . وتحمل الالم في شجاعة ، من اجل مصيره . ولم يتراجع ، وقضى دون غايته وهو مؤمن بعداحة المأساة . (٢) ولكنه اختار ، ولا سبيل للعودة . (٣) .

وقد كان للكندي هذا المصير . اغتصب عرشه ولاحقه العار وتخلى عنه الجميع فلم يستسلم واصبح الكفاح قضيته ولقي حتفه في منتصف الطريق . (٤)

وكان عبد الرحمن بن الاشعث طرازا اخر لهذا المصير . كان قائدا ظافرا اتيح له في زمن الحجاج ان يصل بالفتوحات العربية الى الهند ، وكان التجربة حين تلمس في نفس مصير ملك عظيم ، فخلع طاعة الحجاج وتمرد على الخليفة عبد الملك بن مروان وخلعه وانقادت له البلاد ، ولكنه اسر بمكيدة فانتحر قبل ان يصل الى بغداد (٥).

وعرف الوضاح هذه التجربة ، وهو جذيمة بن الابرش ، وجد نفسه امام الزباء وبينهما ثأر قديم وكان قد قتل اباها واقام لنفسه ملكا عريضا . فلجأت الزباء الى الحيلة فخطبته على نفسها . وكان الحد الفاصل في موقفه حين صمم على الذهاب اليها دون وجل وكان من السطوة والزهو ماجعله يرفض النظر الى العاقبة . عندما ادرك — بعد فوات الاوان — انه كان ماضيا الى حتفه ، قبل الموت في جرأة نادرة(٦) والزباء(٧) نفسها لقيت بعده هذا المصير فانتزعها الثار من عرشها المنيع وعندما وقفت امام الموت اخذته بنفسها وقالت كلمتها المعروفة :

« بيدي لابيدك ياعمرو .. »

وعلى هذا النحو ايضا اوقف الموت المبكر عزيمة يزيد بن المهلب بن ابي صفرة ، وقد نزعت به الارادة الى الخلافة فاستمر ينازع الامويين سلطة الدولة الى ان اغتيل (١)

ومثل هذا العزم اتاح لسيف بن ذي يزن ان يحمل في عناد وبأس قضية كرامته وقضية قومه ، واستطاع ان يحرر شعبه ويظفر (٢).. ولكن الموت اقتنصه ايضا ..

مصائر كبيرة صنعها افراد اقوياء اختارهم ابن دريد من الذين انفصلوا عن واقعهم ورفضوا حكمة الايام . وقد امتدت اليهم جميعا يد الموت لانهم مدوا يدهم اولا ، واستنزلوا من اوج العظمة . ومن الخير ان نتعزى بهم عن مأساة الحياة .

— ١١ —

اذا كان لكل لذة نهاية ، وكل ارادة متمردة تحمل مصيرها الفاجع ، والفساد يغزو كل شيء ، فلماذا حياة الانسان ؟ هل الانسان حادثة عابرة لا تملك من اليقين الا ما يملك الجسد الفاني او الصبوة الحالمة ؟ وماذا يجديه ان يخلد حياته بالشعر او يترك للناس الذكر الحسن(٣) ؟

تلك هي المأساة في الظاهر . ولكنها في الحقيقة صراع اعمق جذورا في وجود الانسان . يقول الزمن ان الانسان الى فناء . ولكن الانسان يرفض الزوال . ان شيئا من ضياء الابدية يتموج في كيانه ويمنحه الامل والرجاء حتى في احلك ساعات اليأس . (٤) ينظر الى مصيره

(١) هل انا بدع في عرانين ؟

(٢) ولست غريبا من تناءت دياره ... ولكن من واوى التراب غريب
« امرؤ القيس »

(٣) ان امرؤ القيس جرى الى مدى ... فاعتاقه حمامه دون المدا

(٤) وخامرت نفس ابي الجبر الجوى ... حتى حواه الحتف ..

(٥) ... ساق نفسه الى الردى حذار اشمات العدى

(٦) واخترم الوضاح من دون الذي ... املها سيف الحمام المنتضى

(٧) واستنزل الزباء قسرا ...

(١) فاعترضت دون الذي رام ..

(٢) وسيف استعلت به همته ..

(٣) وانما المرء حديث بعده ..

(٤) ما اعتن لي يأس يناجي همتي ... الا تحداه رجاء .. »

ظهر حديثا عن دار الثقافة — بيروت

النقد الادبي ومدارسه الحديثة

« الجزء الثاني »

بقلم ستانلي هايمن

ترجمة
الدكتور احسان عباس — الدكتور محمد نجم

يطلب من الناشر دار الثقافة

ص .ب ٥٤٣ بيروت

وعموم المكتبات الكبرى

فيرى حكمة الزمن اقوى من ان ينالها التغير فالموت حقيقة (١) ومن الحماقة ان يغفل المرء عن هذه الحقيقة ويفتر بالحياة (٢) ولكنه من خلال موته ، من خلال فنائه الشخصي ، يتطلع الى الابدية ويؤمن ان له مايبرر هذا التطلع ، على الرغم من الفساد الذي يتخلل حياته .

الحقيقة ان الابدية تتراءى لنا في الحياة نفسها ، ونستطيع ان نتبين ملامحها في المقدسات التي تهيمن على نفوس الجميع بالطمانينة واليقين. والاشياء المقدسة ليست من صنع الفرد ، بل هي امل يتوجه اليه الجميع كتشاطىء راسخ لانناله امواج الزمن وعواصف الفناء . وحين يلتفت الفرد الى هذا الشاطىء فانما يستجير من الاسى والنخيبة اللذين تحملهما اليه تجربة الحياة ، خلال اعوام وجوده . فهو فان ، ولكن الانسان باق بعده، تغمره المقدسات ابدا بضياء الخلود .

وتصدر هذه المقدسات في تجربة ابن دريد من ثلاثة ينابيع يشير اليها بوضوح في صور تأخذ منه الخشوع والضراعة ، وتطوف به كأسمى ماتحمله حياة الانسان من رجاء ..

الصورة الاولى : المؤمن

النياق الصلبة منطلقات في قلب الصحراء . سراع الخطى . كانهن اشباح القسي . غائرات العيون من الهزال . مقوسات الظهور . انوفهن راعفة من جذب اللجاب . حين يأتي الظلام يغبن في لجة الدجى السحيقة وفي النهار يطفون فيما رفعته الشمس من مشرق السراب . اخفافهن المتشققة من الحفا والمشقة تخضب بالدم الحصى الابيض . يحملن كل شاحب تقوس ظهره من طول السفر واحتمال التعب . مؤمن خاشع انهكه التقشف . ماض الى المكان المقدس (٣).

الصورة الثانية : البطل

الخيل تعدو . اكتافها هزيلة ناشزة واعرافها مشعثة في الرياح . تتسابق كالذئاب الكواسر ، رانية بعيونها المائلة الى بريق الرماح ، تحمل كل مقاتل ماض الى الكفاح ، كل محارب باسل ، قوي الفؤاد ، فاذف نفسه في غمرة القتال ، يغشى الحرب بحدي سيفه حين تكون الحرب مخيفة رهيبة ، لو مثل له الموت خصما لما صده الخوف عن الاقتحام ، ولو اراد القدر حمايته من الموت لرفض واقتحم بنفسه الفناء (٤).

الصورة الثالثة : الاجداد

الاجداد الشم ، اقدس مايقسم به الانسان ، الذين حملوا لواء المكارم واليهم ترجع المآثر ، ان فاخرهم احد قال الفخر نفسه : ليمتلىء فمك ترابا ، الذين اجروا ينابيع السخاء فغمروا العالم بالهبات ، الذين اذلوا من تجبر وقوموا من سولت له نفسه الغرور ، وجرعوا الذل من تحداهم واراد لهم الهوان (٥)

الايمان ، البطولة ، الامة .. تلك هي مقدسات الحياة الانسانية في تجربة ابن دريد ... الشواطىء الرحيبة التي تفتح للانسان آفاق الامل حين تخطئه العزيمة الصادقة امام المأساة .

دمشق — صدقي اسماعيل

(١) والناس للموت خلا يلسهم .. »
عجبت من مسيتقن ان الردى اذا اتاه لايداوى بالرقى

(٢) وهو من الغفلة في اهوية ..

(٣) البيت (٤٦) من المقصورة وما يليه .

(٤) البيت (٦٠) وما يليه

(٥) البيت (٦٧) وما يليه .

ومضة برق

ـ التتمة من الصفحة ٣٥ ـ

واخذت العاصفة تهدأ شيئا فشيئا ، فانقطع الرعد ، وانقشعت السحب عن سماء زرقاء فيها قمر يتهادى بين الغيوم ، وبدأ الصبح يتنفس عن نهار مشرق وضاح . واخذت هي تستعيد هدوءها وتستوعب ما حدث لها كأنها كانت في غيبوبة وصحت لتوها . فكبر عليها الامر وتملكها خوف شديد وراحت تسائل نفسها مرتاعة :

كيف استطاع هذا الماكر ان ينتزع منها هذا الاعتراف الخطير بسهولة ويسر ؟ لقد اغتنم فرصة يأسها وانهيار اعصابها فكان له ماأراد ..

الى م ينتهي امرها ياترى ؟؟..

وراحت تصغي الى صوت خطواته وهو يتنقل بين غرف البيت ، والى صوت حركة متوالية في غرفة الزينة المقابلة لغرفة النوم ، والى صرير ابواب الخزائن والادراج وهي تفتح وتغلق . ماذا يعمل يا ترى ؟ ليت لديها ولو قليلا من الشجاعة لمجابهته وسؤاله عما يفعل ، ثم سمعت صوت خطواته على الدرج ، ثم صرير باب البيت الخارجي وهو يغلق بشدة فتيقنت انه برح البيت . فخرجت من غرفتها واسرعت الى الشرفة واطلت منها فلمحته وهو يركب سيارته وينطلق بها . تساءلت الى اين ياترى ولما تشرق الشمس ؟؟. لاشك انه ذاهب الى ابيها ليخبره بكل ماحدث بينهما . فياهول ماينتظرها !!...

وعادت الى غرفتها مستسلمة الى اليأس والقنوط . رات في طريق عودتها على احدى المناضد رسالة تركها لها فتناولتها وفتحتها واخذت تقرؤ وتعيد ما تقرأ بدهشة واستغراب وتكاد لا تصدق ما تقرأ. احقا ياترى ما يقول ؟ انه ماض الان الى مشروعه في القرية النائية . وسيظل ما حدث بينهما هذه الليلة سرا مكتوما حتى عن ابيها وزوجه لانه يعرف تماما ماسيلحقها من ضيم اذا عرفا حقيقة امرها ، تلك الحقيقة التي يراها هو حقا مشروعا لها ، ومن الظلم ان تحرم منه . وسيبقيها في بيته وتحت حمايته ـ ان ارادت ـ ريثما تدبر امورها كما يحلو لها ، لانه لن تربطه بها بعد اليوم رابطة تجيز له التدخل في شؤونها الخاصة ، وسيعيد اليها حريتها ساعة ترغب ، وسيكون لها خير نصير . ويختم رسالته بجملة بدت لها اول الامر كلغز اذ يقول :

انا رجل كهل تستطيع امرأة مثلك ان تسعدني ولكنها لاتستطيع ابدا ان تشقيني ، ولذا فانا احمد الله الذي سخر لي ومضة برق عابرة اضاءت لي حقيقة امرك ، وكانت معوانا لي على كشف سرك الذي تخفينه عني وتشقين به ، واحمديه انت ايضا لانه اومضها في نفسي فانتهيت الى هذا القرار الذي ارتاح اليه ضميري ، ولن احيد عنه ابدا مهما قال الناس فيه .

بينما كانت هي تقرأ وتعيد ماتقرأ في دهشة واستغراب ، كان هو ماضيا في طريقه ، تنهب سيارته الارض نهبا وقد جلس خلف مقودها شامخ الرأس متعاليا راضي النفس ، يبدو لعينيه كل شيء جميلا ، ويشعر معتزا بان الغلبة كانت له ايضا على المرأة في هذه الليلة العاصفة بكل شيء كما لم تكن له ابدا ...

دمشق — الفه ادلبي

من جمعية الادباء العرب